تراث عالمى

يختار العالم شعراءه بقسطاس عادل منزه عن الجنف والمحاباة غاية ما يستطاع العدل فى حكم من أحكام الناس، لأن الجور فى الحكم إنما يأتى من التحيز إلى جانب دون سائر الجوانب، والعالمية والتحيز إلى جانب واحد نقيضان.

والعالم يختار شعراءه على مهل، ولا يكون الحكم فى اختياره للشاعر المختار ولا للأمة التى تنميه ولا لطائفة من الأمم يشملها هوى عارض فى سنوات معدودات ولكنه حكم يرجع إلى قضاة متفرقين لأسباب متعددة، إذا تطابقت واستقامت على وجهة واحدة فهى بنجوة من أهواء الجور والمحاباة، ويكاد هذا الحكم يستقل عن منازعات الرأى فى مدارس الأدب ومذاهب النقد، لأن حكم العالم باختيار الشاعر يتم عند تمام الاهتمام بتقديره ولا تنتظر مدارس الأدب حتى تفرغ من الأسماء والعناوين التى تطلقها على ذلك التقدير، ولا غبار على ميزان الاهتمام فى جملته، إذ يكفى أن يطول اهتمام العالم كله بكلام شاعر لتثبت له القيمة الأدبية، أيا كان اسم تلك القيمة فى مذاهب الأدباء والنقاد.

وآية الشاعر العالمى متى وجد فى أمة من الأمم أن هذه الأمة لا تستطيع أن تحصره فيها، لأنه استحق «العالمية» بمزاياه

الإنسانية المشتركة بين الأقوام والأزمنة، ولم يستحقها بمزية مقصورة على قومه يكررونها ويعيدونها بما استأثروا به من صفاتهم المكررة المعادة، وإذا لم يكن فى إنجلترا شكسبيران ولم يكن فى اليونان هوميران، فليست علاقة الوطن فى أحدهما بأثبت من علاقة الإنسان حيث كان.

ولهذا يحدث أحيانًا أن يتشيع للشاعر العالمى أناس من غير وطنه على أناس من صميم وطنه، وقد يهجرونه فى بلاده زمنًا ثم يعودون إليه بهداية جديدة من الغرباء عنهم، فهم يستوردونه مرات من «الخارج» ولا يحق لهم أن يمنوا على «الخارج» بأنهم قد أصدروه إليه.

تلك آية من آيات «العالمية» تتمثل فى شكسبير كما تمثلت فى نظرائه من عباقرة العالم، فلا تستأثر بلاده اليوم بمأثرة من مآثر العناية به فيما عدا القربى «المحلية» التى فرضتها اللغة والمكان، وفى بلاد اللغة الإنجليزية من أجل ذلك متاحف لآثاره ومعاهد لذكرياته وطبعات من أصول كتبه لا يضارعها بلد آخر يتكلم بلغة أخرى ... أما دراسته ومراجعة أقواله وأقوال نقاده وشراحه، فذلك مجال يتسابق فيه قومه وغير قومه، ولا يندر أن يكون قومه هم المسبوقين فيه.

* * *

على أن هذه الشهرة العالمية لم تتوطد لشكسبير على عجل، فقد مضى أكثر من مائة سنة قبل أن ينتقل اسمه من جزيرته

شـوطًا بعيدًا إلى أرجاء القارة الأوروبية، ثم سرى فيها على مهل، فاختلف مجراه ومجرى السياسة فى دولته اختلافًا ينبئ عن كثير من أسـرار العظمة الأدبية، وأظهر ما ينبئ عنه أن العظمة الأدبية التى ترتفع إلى أوج المكانة العالمية تسير بخطاها ولا تسير فى ركاب دولة تحميها، فلـو كانت فى القارة الأوروبية بلاد تحتجب عنها شـهرة شكسبير لسبب من أسباب السياسـة الدولية لكانت فرنسا وألمانيـا وروسـيا أحق البـلاد أن تحتجب عنها تلك الشـهرة وأن تقـف عند حدودها فلا تعبرها، فإنها الـدول الثلاث التى أقامتها الحوادث منذ القرن السابع عشر مقام المنافسة - أو المنازعة - للدولة البريطانية فى طلب السيادة على القارة وما وراءها، ومن لم يشتبك منها فى حرب مع دولة شكسـبير خلال القرن التاسـع عشـر فقد كان فـى ذلك القرن يجمع عدته لتلك الحرب ويتوقعها فى أوانها، ولكن هذه الدولة كانت بين أسبق الدول الأوربية إلى تعظيم الشاعر الغريب عن القارة وترويج أدبه والتنويه بقدره، وكان أسـبقها فى الزمن وفى التنويه فرنسا التى كانت خلال القرن كله تتلقى زحف شكسـبير زحفًا بعد زحف وتذود جيوش بلاده فى ميادين القارات الأربع بين العالمين القديم والجديد.

وآية «العالمية» فى تنويه فرنسا بالشاعر الغريب أن يكون له فيها أنصار يفضلونه على أعلام الشـعر والفن فى أمتهم من طراز كورنى وراسـين وموليير، ومن لم يفضله فى جميع المزايا على إطلاقها فقد

فضلــه فى بعض مزاياه غــير متحرج ولا متحفــظ، ومن هؤلاء من رفعتهــم «شــهرتهم العالمية» فى حينها إلى طبقة كورنى وراســين وموليير، وهم هوجو، ولامرتين، وأناتول فرانس، وأندريه جيد، ورومان رولان.

* * *

وفى ألمانيا ننظر إلى الأدباء والمفكرين الذين جعلتهم الأمة الألمانية فخرًا «وطنيًا» لها فإذا هم أكبر أدبائها ونقادها إعجابًا بشكسبير، وقد كتب عنه هردر وجيتى وشــلجل ولسنغ فى ألمانيا، وكتب عنه كولــردج وكارليل وهازليت وأرنولد فى إنجلــترا، وتقارب الوقت الــذى كتب فيه هؤلاء وهؤلاء كأنهم فى مباراة بينهم للتعريف به والإبانة عن معرفتهم بقدره، فلو كان قصب الســبق فى هذه المباراة لمــن أعلن من فضله ما لم يعلنه الآخرون لتردد القارئ طويلا قبل أن يسلم قصب السبق للإنجليز أو الألمان.

وبعد حربين من حروب الحياة والموت بين ألمانيا وإنجلترا يحصى الناقــد الألمانى ولفجانج كليمين Wolfgang Clemen ١٤٢٤ عرضًا لروايات شكسبير، ويشير إلى أسبوع خاص أفرد لتلقى الروايات على مسرح الدولة بدرســدن، ويذكر أن جماعة شكسبير استأنفت إصدار مجلتها الخاصة بأخباره وبحوثه، فصدر منها ثلاثة أعداد من الرابع والثمانين إلى الســادس والثمانين بعــد انقطاعها لضرورات الحرب، وعادت الجماعة إلى عقد جلساتها السنوية بمسرح بوشام Bochum

فانتخب لرئاستها الشاعر المؤلف إسكندر شرودر Schroder بعد موت رئيسها السابق فى سنة ١٩٥١م[١].

* * *

ويوم نبغ بوشكين رائد المسرح الروسى الحديث كانت دولته ودولة شكسبير قد وقفتا موقف الطرفين المتناجزين من المسألة الشرقية ومسألة الهند والشرق الأقصى، فكان إضعاف إحدى الدولتين وإحباط سياستها فى آسيا وأوربا هدفًا صريحًا للدولة الأخرى، وكانت روسيا وإنجلترا يومئذ كالعدوتين «الطبيعيتين» فى عالم الأحياء.

وفى الحقبة التى استحكم فيها هذا العداء بين الدولتين نشأ بوشكين، وقرأ الأدب الفرنسى واطلع على أدب الأقدمين، ثم درس شكسبير فجعل وصيته الأدبية كلمتين «اقرأ شكسبير!» وأنكر دستور الأقدمين ليأخذ بدستوره فى وحدة الحركة دون وحدة الزمن والموقع، وفضل طريقته فى الأحاديث المفردة والهمسات الجانبية على حيل المحدثين التى يظنونها أقرب إلى الطبيعة، وهى فى رأيه أبعد من الطبيعة ومن الذوق السائغ فى فن التمثيل.

وجاء تولستوى بعد عصر بوشكين، وكان سنى الرأى فى جميع الفنون الجميلة لأسباب تشبه أسباب المتطهرين من الإنجليز، ولم

---

(١) العدد الخامس من الكتاب الدورى «عرض شكسبير «Shakespeare Survey» لسنة ١٩٥٢م.

يكـن من دأبه أن يكترث لنقد النظم والنثـر أو يحفل بترجيح زى علـى زى فى القصص أو التمثيل، ولكنه وجد «الفن الشكسـبيرى» قضية من القضايا الشـاغلة لأذهان المثقفين مـن أبناء بلاده، ورأى أنـه جدير منه بتأليف كتاب يخصصـه لموضوعه، فألف كتابه عن شكسـبير والدراما ليقول إنه لا يتذوق مسـرحياته ولا يدرى سـر تعظيمـه والافتتـان بأدبه، وكل ما يـراه منـه أن أبطاله تعوزهم الشـخصية وأن مواقفه لا تجرى على السجية، وأن فنه فى أعماقه لا يصـدر عن الينبوع الذى ينبغى أن يصـدر منه كل فن أصيل وهو جوهر القداسـة، فحمد قراء تولستوى صراحته ولم يأخذوا برأيه، بـل عدلوا عنه إلى رأى قرين له يعادله فى المنزلة الوطنية والعالمية ويـدرى من دقائق الفن والذوق ما يعجم عليه، وهو إيفان ترجنيف الذى ذهب إلى رأى فى شكسـبير يناقض رأى تولسـتوى فيما قاله عنه فى محاضرته عن هملت ودون كيشوت.

وظل شكسبير «العالمى» إلى ختام عهد القياصرة شقة وسطى يتلاقى فيها المحافظون والثائرون، ثـم ذهبت الثورة بعهد القياصرة بعد الحرب العالمية الكبرى ولم تذهب بمكانة شكسـبير على المسرح، بل زادته عليها مكانة مثلها فى ساحة الموسيقى والغناء.

جاء فى بريد السـجل السـنوى الذى يصدر عن أخبار الشـاعر باسـم «عرض شكسـبير» بقلم خبيره الروسى الأسـتاذ موروزوف Morozov: «شهدت سنة ١٩٥٠م عددًا من عروض الإخراج الجديد

لروايات شكسبير على المسارح السوفيتية وحافظت رواية عبد الله المغربي على مكانها الأول بين تلك العروض، فإن هذه الرواية الإنسانية النبيلة تستجيب لها أغلى الأوتار فى قلوب النظارة منا، والنغمة التى وقع عليها شكسبير قصة الحب بين عبد الله وديدمونة تستجيش منهم أعمق العواطف، ويترجمها المسرح السوفيتى كأنها قصة الثقة المخدوعة ولا يترجمها كأنها قصة الغيرة الثائرة».

ثم قال الكاتب: «إن شكسبير يعرض أيضًا فى مسارح الموسيقى، وقد عرضت له فى سنة ١٩٥٠م رواية عبد الله منغمة بتلحين فردى ... وليست مسرحيات شكسبير فرصة للممثلين وحسب، بل هى فرصة للمنشدين وخبراء الإلقاء، وقد كان جولبنتسيف Golubentsev عند عرض روميو وجولييت ليلقى شذرات منها بين حين وحين».

وقد ذكر الكاتب خمس روايات فكاهية لها حظوة خاصة بين نظارة التمثيل أو مستمعى الموسيقى، وهى روايات ترويض السليطة، والليلة الثانية عشرة، والعناء الضائع، وزوجات وندسور المرحات، وملهاة الأغلاط، ومنها ما يُمثَّل فى العواصم على مسارح الدولة.

وبعد، فإن روسيا وألمانيا وفرنسا هى الدولة الأوربية الكبرى التى كانت تنافس إنجلترا فى السيادة على القارة خلال القرن الذى استفاضت فيه لشكسبير شهرة عالمية أو شهرة أوربية، وشأنها فيما نحن بصدده أن العناية فيها بالشاعر الغريب أدل على استقلال

الفكرة الإنسانية أو استقلال رسالة العبقرية فى عالم الفكر من نظائر هذه العناية فى الأمم الأخرى، فهى فكرة تتخطى حواجز السياسة وتشق بين الأمم طريقها فهى غنية عن خطط السياسة ومساعى الحكومات.

أما فيما عدا ذلك فلا فرق بين كبار الدول وصغارها فى رعاية الأمم لحق الفكرة الإنسانية، فهى فى جملتها تسهم بما عندها فى أداء هذه الفكرة وتبليغها، فبدأ فردى بتلحين مكبث فى سنة ١٨٤٧م قبل أن تظهر لشكسبير ملحنة واحدة فى بلاده، وتلاها بتلحين عبد الله المغربى، وزوجات وندسور، والملك هنرى الرابع وكانت ترجمات الروايات إلى اللغة الإيطالية تتلاحق من أواخر القرن الثامن عشر إلى هذه السنوات.

وليس فى القارة لغة لم تترجم إليها روايات من شكسبير ولم تسهم فى تمثيله أو إخراجه بنصيب ملحوظ، وقد أصبح الاشتراك فى إحياء هذه العبقرية على صورة من الصور واجبًا يتنافس فيه أبناء الأمم لغير ضرورة محتومة سوى الأنفة من فوات حصتهم فى تلك العبقرية الخالدة، ففى بلاد البلجيك شعب من الفلمنكيين يستطيع أن يفهم شكسبير بلغة من اللغات التى يمثل بها على المسارح البلجيكية، فرنسية أو ألمانية، ولكنهم يغارون على لغتهم أن تخلو من ترجمة، ويغارون على مسرحهم أن تنقضى عليه سنة بغير عرض خاص باسم شكسبير، ومما يفخرون به أن مسرحهم لم

يخلُ من عرض رواياته إلا فى السنوات من ١٩١٤م إلى ١٩١٩م وهى سنوات الحرب العالمية الأولى.

* * *

وقد وصل شكسبير إلى الأمم الشرقية فى الشرقين الأدنى والأقصى مع المسرح الحديث، وترجمت رواياته الأوليان إلى اللغة العربية من الفرنسية، وهما روميو وجوليت، وهملت، وسميت الأولى بشهداء الغرام.

وكان طلاب المدارس يدرسونه أجزاء متفرقة فى سلك التعليم الثانوى فى البلاد التى تقرر فيها التعليم باللغة الإنجليزية كالهند ومصر، ثم تقررت له دراسات مطولة فى معاهد الدراسة العليا، وأصبحت قراءته من مطالعات البرامج المدرسية أو الجامعية، فعرفه طلاب الشرق كما عرفه طلاب الغرب على منهج هذه المطالعات.

ويتوق النقاد الغربيون كثيرًا إلى العلم بأثر شكسبير فى أذهان الشرقيين المتعلمين وغير المتعلمين، ويسألون عن هذا الأثر من قرأوه ومن شهدوا تمثيله فى المسارح الوطنية والمسارح الأوروبية التى تمثله بمختلف اللغات، ويخيل إلينا أن أولئك السائلين يشعرون بخيبة الأمل كلما سمعوا جوابًا لا غرابة فيه، لأنهم يتوقعون من الشرقى دائمًا أن يكون إنسانًا غريبًا: يرى بعين غير الأعين ويفهم بفكر غير الأفكار.

وقد رأينا أحدهم يهتم بسؤال شيخ من الشرقيين «البحت» كما قال عنه لأنه نشأ قبل أن ينشأ الجيل الذى تفرنج فى الحواضر

ودور التعليم، وكان هذا الشيخ يشهد رواية روميو وجوليت من فرقة متنقلة بمدينة الأقصر تعرض رواياتها في مولد من الموالد المشهودة التي تنتجعها فرق التمثيل والغناء في الإقليم، فاقترب منه وسأله عن رأيه في«الحكاية» التي يشهدها. قال الشيخ - على ثقة وبراءة -: لقد كان حقًا أن تموت عجوز السوء التي كانت تتوسط بين الفتى والفتاة، فإنها أحق بالموت منهما وممن هلك من أهلهما، وما يأتي الفساد في البيوت إلا من هذه العجوز وأمثالها...

والنقاد الغربيون الذين يسألون عن أثر شكسبير بين نظارته من الشرقيين يستريحون لسماع هذا الجواب، ويصيبون إذا قالوا إنه جواب لا يسمعون مثله من عامة النظارة في البلاد الغربية، ولكنهم يعدون الصواب إذا اعتقدوا أن الشيخ الشرقي«البحت» قد أجاب بذلك الجواب؛ لأنه«إنسان غريب» إذ ليس بالغريب أن يرد ذلك الخاطر على فكر إنسان يستمد الرأى من تجاربه، سواء فهم الروايات تكتب للعبرة أو تكتب لحكاية الواقع كما ينبغي أن يكون في الحياة، ولو كان كاتب «روميو وجوليت» شرقيًا لجاز أن يتلقى من الشيخ الشرقي اعتراضًا كذلك الاعتراض.

ونحن نحس الولع بقنص الغرائب فيما نقرأه من الآراء التي يقال عنها في الغرب إنها نماذج شرقية، ويعنون أنها تعبر عن الطبائع الشرقية في صميمها، ولا يقصرون معناها على حالة خاصة، إذا جاز أن تعرض للإنسان في الهند والصين ومصر والسودان، جاز أن تعرض له في كل مكان.

ونود أن نسوق بعض الأمثلة لهذه الغرائب من كتاب ألفه الأستاذ رانجى شـاهانى الهندى Ranjee Shahani وسماه «شكسبير فى الأعين الشرقية» ورآه العلامة مدلثون مورى والعلامة إميل ليجوى Legouis مثـالا مقبولا لفهم شكسـبير فى نظر الشـرقيين، وكلا العلامتـين حجة فى النقد الأدبى ولكنهما«غير حجة» ولا ريب فى إطلاق الحكم على الأفكار الشـرقية بين أهل الهند وبين غيرهم من أمم الشرقين الأدنى والأقصى.

فمما أورده الكاتب شـاهانى من مآخذ الشـرقيين على شكسبير أنهم لا يحسون مأساة فى أعماق ضمائرهم لأن فجيعتها الكبرى هى الموت وليسـت النكبة الأبدية فى المـوت عند البرهميين والبوذيين الذين يدينون بالخلاص وتجدد الحياة.

ومما أورده من تلك المآخذ أن شكسبير يتناقض فى المنظر الواحد وأنه أشد ما يكون تناقضًا فى رواياته المفضلة على سواها.

قـال «إن هملت قد وجدت صادقـة مصدقة للحياة، وأعجب بها الهنود المثقفون وغير المثقفين على السواء ولكنها تنطوى على تناقض محسوس فى موضع أو موضعين، إذ يقول هملت فى مناجاته الثالثة عـن العالم الآخر «إنه المملكة التـى لا يرجع منها من ذهب إليها» وهو لما يكد يفرغ من رؤية طيف أبيه على المعقل، فكيف نفسر هذا؟ إن شكسبير كما يقول عنه جيتى يرسل ألسنة أبطاله بالمقال المناسب لـكل مقام ولا يبالى أن يتناقضوا. وهـذا صحيح على الجملة ولكننا

هنـا أمام تناقض واضح، وكثير من مصاعبنـا فى فهم الرواية يأتى من أمثال هذا الخطل الدرامى. وما عدا ذلك من نقائض الرواية فهو أعمق وألصق بطبيعة هملت فى تكوينها. إذ هو يضطرب بين قطبين متعارضـين: قطب العقيدة وقطب الإنكار: نصفه مسـيحى ونصفه إغريقى على غرار الأقدمين».

وتكثر أشـباه هذه المآخذ فى ملاحظـات الكاتب وفى الملاحظات الأخـرى التى تروى عن الشـرقيين ويراد بها أنهـم يفهمون الفن بطبيعـة غريبة عن الطبائع التى تعبر عنها فنون الغربيين، وليس فيما قرأناه منها ملاحظة واحدة يختص بها الشرقيون أو تصدر عن الشرقى لأنه شرقى ولا يجوز أن تصدر من الغربيين، وأن يصدر عن الشرقيين أنفسـهم ما يناقضها ويذهب إلى وجهة تقابل وجهتها، وإنمـا هى آراء تختلف كما تختلف الآراء دون أن تختلف الطبيعة فى صميمها.

فالرأى الذى يقول به الكاتب البرهمى عن التناقض بين مأسـاة شكسبير وعقيدة الخلاص بعد الحياة، يقول الأستاذ مدلتون مورى بمثله عن التناقض بين العقيدة المسـيحية وبين المآسـى جميعًا فى أساسـها، ويقـدم ملاحظات الكاتـب الهندى فيقول: «إن المأسـاة والمسـيحية لفى تناقض يشـبه هذا التناقض، ولولا أن المسـيحيين تعودوا ألا يدينوا أنفسهم باطراد التفكير، أو ربما تعودوا ألا يؤمنوا حقًا بعقائدهم لما تغاضوا عن هذا التناقض».

وعندنا أن نصيب الأستاذ مورى من الصواب لا يزيد على نصيب الأستاذ شاهانى منه، فما كان الإنسان ليتجرد من طبيعته لأنه يؤمن بما وراء الطبيعة، وما كان ليبطل شعوره بالمأساة لاختلاف الطبيعة وما بعد الطبيعة فى نظره، وإنما تأتى المأساة من هذا الشعور الذى يدور على محورين ولا يتيسر له أن يديره على محور متحد لا لبس فيه.

وليس بالحتم مع هذا أن يكون البوذيون أو البرهميون على رأى متفق فى النظر إلى المأساة بهذه النظرة، فبعض البوذيين من بورما - كما جاء فى الكتاب نفسه - يعجبون بشكسبير لأسباب دقيقة، ويقول أحدهم: «إن أدب شكسبير يعمل على تعليم أمثلة عالية من الأخلاق كالتى تعلمها الديانة البوذية بلا فارق من الوجهة الأدبية، وإنه لعلى الرغم من تقديره البالغ للدنيا ليضع يده فى يد البوذى متصافحين حين ينظر هذا إلى الدنيا نظرة الزهد فيها».

أما التناقض فى رواية هملت فنحن - من قراء الرواية الشرقيين - لم نشعر قط أنه من المصاعب التى تحول دون القارئ الشرقى وفهمها، وأذكر أننا كنا نقرأ «هملت» مع صديقنا المازنى، فكنا نتوقف عند هذا التناقض لنعجب من صدقه ودقته فى التعبير عن شخصية بطل الرواية - إذ كان شكسبير يصوِّر لنا إنسانًا مخبول الحس، مضطرب الإرادة يتردد بين الانتقام والإحجام لأنه يشك فى الطيف: هل هو شيطان من الجحيم يغريه بالإثم أو هو فى الحق

طيف أبيه يحضه على الواجب، ومن تردده أنه كان يحار فى كونه ويتساءل: أيكون أو لا يكون؟ ثم يتقلب فى الجواب ويتقلب فى العمل كما يحدث لكل حائر مضطرب العقيدة بين الشك واليقين، ولو أنه ظهر لنا فى الرواية على غير هذه الصورة لكان هذا هو التناقض الذى يعاب على المؤلف ويوقع القارئ فى صعوبة الفهم لهذه الشخصية التى يجب أن تكون متناقضة، ثم لا يرى منها فى المواقف المختلفة إلا التوافق والاستقامة على مسلك واحد.

إن شكسبير لم يكن يعرف عن الشرق شيئًا من تواريخه أو أحواله أو مواقعه وأمكنته يزيد على القسط الشائع بين أبناء زمنه، مما تناقلوه عن الصليبيين ومن تقدمهم من رواد السياحة وطلاب الغرائب والأساطير، وكلما وردت الإشارة إلى الشرق فى رواياته وقصائده فهو شرق الطيوب والعطور وشرق الأسرار والخفايا، وشرق الأرواح والجنة التى تفارق الهند لتلهو وتعبث فى مفازة الغرب ثم تعود إليها، وربما حماه صدق البديهة فأورد تلك العجائب موردها من الفكاهة والتندر بالأساطير، وربما أومأ إليها متسائلا كما أومأ إلى قصة نبى الإسلام والحمامة فى روايته الأولى من تاريخ هنرى السادس، فقد كان محمد عليه السلام يوهم العرب فى زعمهم، أنه يتلقى الوحى من ملك فى صورة حمامة تقف على كتفه وتضع منقارها فى أذنه، لأنه كما زعموا عودها أن تلتقط الحب منها. وقد سمع شكسبير بهذه القصة وسمعها معه الأوربيون من رواة الحروب

الصليبية، فلما أومأ إليها عرضًا لم يزد على أن يتساءل: أوكان محمد يسمع الوحى من حمامة؟ إنك إذن لتسمعينه من عقاب.

فإذا كان العلم بالشـرق علم أحوال وتواريخ فلا خبر من أخباره الصحاح عند شكسبير أصدق من صدق الحس فى استغراب الغرائب وتلوين الروايات المنقولة بصبغة الأسـاطير، وليس للشرقيين لديه ذخيرة من التاريخ أو الجغرافية يستعيدونها من رواياته وأشعاره، ولكنه إذا تحدث إلى الناس عن طبيعة الإنسـان فحصتهم عنده هى حصتهم فى تلك الطبيعة الخالدة الشاملة كاملة غير منقوصة، وإنه ليحجز الشـرق بغير حاجز ذلك الذى يظن أن الانتماء إليه حجاب بينه وبين رسـالة من الرسـالات العالمية فى الأدب والفن، أو يظن أن هذه الرسالات تتخطى حدود الأقاليم واللغات والعصور ثم تقف عند حدوده، كأنه خارج من نطاق العالمية أو نطاق الإنسانية!

ولا مشـاحة فى اختـلاف الأذواق والمشـارب، ولكنه اختلاف موكل بالشكل والعرض وليس هو بالاختلاف الذى يتغلغل إلى أعماق الطبيعة وبواطن الحياة، بل هو الاختلاف الذى يطويه الأدب العالمى ويلفه فى ساحته الضافية فوق الحواجز والسدود، وقد يتغير الذوق بين الأمتين المتجاورتين، وقد يتغير فى الأمة الواحدة بين جيلين، ولكنه آخر الأمـر كاختلاف الأجواء فى الكوكـب الواحد: صيف وشـتاء، ودرجات من الحر والبرد ومـن النور والظلام، لا يتحدث المتحدث بها عن شىء مجهول بين قطبيه.

فلم يبلغ اختلاف الذوق فى فهم شكسبير وتمثيله أشد مما بلغ فى المسرح الإنجليزى من منتصف القرن الثامن عشر إلى منتصف القرن التاسع عشر، فإن هذا المسرح قد انقسم يومئذ إلى معسكرين ونشبت بينهما معركة فنية سُمِّيت بمعركة روميو وجوليت، كان مدارها على تمثيل الرواية بنصها أو تعديل بعض مناظرها وفقراتها وتحويل منظرها الأخير إلى «خاتمة سعيدة» تخرج الرواية من عداد المآسى المحزنة كما وضعها شكسبير، وظلت هذه الرواية تمثل للمتكلمين بالإنجليزية على نصوص متعددة إلى سنة ١٨٤٧م التى أعيدت فيها الرواية إلى نصوصها ومناظرها كما مثلها مؤلفها على مسرحه، ولم يحدث بين ذوقين فى المشرق والمغرب أن يفترقا فى فن العرض والإخراج أبعد من هذا الافتراق.

ففى مصر خرج المسرح العربى بين المعسكرين فحذف بعض المناظر وأبقى ختام الرواية على أصله موافقًا للعنوان الذى ارتضاه وهو شهداء الغرام، ولما تغنى الشيخ سلامة حجازى بالشعر فى مواقفها الأخيرة كان مستمعوه المعجبون هم جمهرة النظارة على الفطرة، وكان نقاده هم نقلة النقد من المسارح الأوروبية، وكأنهم نسوا أن مواقف الغناء قد غنيت على المسرح الفرنسى بتلحين Gounod وأن الرواية تمثل ملحنة ببعض أجزائها كما تمثل ملحنة بجميع أجزائها من وضع موسيقيين آخرين.

وقيل غير مرة: إن فكاهة فلستاف فى روايتى هنرى الرابع ورواية زوجات وندسور المرحات إنما تعجب أهل الشمال وتضحكهم، ولكنها لا توافق الجنوبيين من أهل أوربا ولا من الشرقيين، فجاء فردى الإيطالى فاستخرج«شخصية» فلستاف من الروايات الثلاث، وأطلق اسمه على ملحنته فتقبَّلها أهل الجنوب كما تقبَّلها أهل الشمال.

هذه الاختلافات فى الذوق الصحيح أو المدعى توجد فى البلد الواحد وتوجد من باب أولى على تشعب واتساع بين الشرق والغرب وبين الأقطار المتباعدة، وقد تعوق أنواعًا من أعمال الفن التى تغلب عليها المسحة المحلية أو العوارض الموقوتة، فتصلح لبلدة ولا تصلح لأخرى وتروق طائفة من الناس ولا تروق غيرها، بل هى قد تروق الطائفة بعينها فى وقت ولا تروقها فى وقت آخر، أما أعمال الفن التى ترينا الإنسان على حقيقته الباقية فلا سبيل عليها لأمثال تلك الفروق والمفارقات، بل هى ذات رسالة فى تاريخ الفكر الإنسانى تتحقق بإلغاء تلك الفروق والمفارقات وإدماجها وتعبر الزمن من فوقها ومن ورائها فى حياة واحدة باقية، هى حياة الإنسان الخالدة فى مرآة العبقرية الخالدة، وهى كما رأينا تؤدى الأمانة الكبرى فى طريقها الثابت لا تعتمد على سطوة تحميها ولا تجفل من سطوة تنازعها، وهذه هى أمانة الفكر الإنسانى من قديم الزمن سبقت دعوة الداعين وعظات الواعظين، وعرفت

الإنسان«إنسانًا» واحدًا قبل أن يلغط بها رسل الدول وسماسرة السلطان مخلصين وغير مخلصين.

وآخر ما نختتم به هذه الكلمة عن رسالة«الفن العالمى» أن روايات شكسبير تنقل إلى اللغة العربية تامة محققة فى عهد استقلال، ولم تنقل على هذا المثال خلال سبعين سنة فى عهد حماية أو احتلال.

سطوة الدولة لم تكن لها يد بالأمس فى«ترويج» شكسبير بين الفرنسيين والألمان والروس، وسطوة الدولة لم تروجه بين المصريين وهم يعملون بأعينها ولا يفلتون من قبضة يدها.

أخذته الأمة حصة من التراث الإنسانى لا تنزل عنها، ولم يفرض عليها ضريبة تدين بها لمن يغلبها ويتحكم فيها.

وتلك آية «الفكر» الإنسانى فى الآداب العالمية: كل أمة تسأل عن حصتها منه، لأنه تراث مدخر لجميع بنى الإنسان.

عباس محمود العقاد